مجموع مؤلفات ابن سعدي (٨٠)

نظم وأشعار منوعة للشيخ

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رحمه الله يمدح شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ومؤلفاتهم: [من الكامل]

يا طالبا لعلوم الشرع مجتهدا[1] يبغي انكشاف الحق والعرفان
احرص على كتب الإمامين اللذيـ ـن هما المحك لهذه الأزمان
الْعَالِمَيْنِ العاملَيْن الحافظيـ ـن المعرضين عن الحطام الفاني
عاشا زمانا داعيين إلى الهدى من زائغ ومقلد حيران
صَبَرَا النفوس على جهاد عدوها للقلب والأقوال والأركان
كم نالهم من نكبة وأذية هانت لذات الخالق الديان
نشر الإله لهم ثناء صادقا إذ أحسنوا في العلم والإيمان
فقلوب أهل الخير من حب لهم قد أشربت وثناؤهم بلسان
أعني به شيخ الورى وإمامهم يعزى إلى تيمية الحران
والآخر المدعو بابن القيم بحر العلوم العالم الرباني
فهما اللذان قد اودعا في كُتْبهم غرر العلوم كثيرة الألوان
فيها الفوائد والمسائل جمعت من كل فاكهة بها زوجان
إن رمت معرفة الإله وما له من وصفه وكماله الرباني
أو رمت تفسير الكتاب وما حوى من كثرة الأسرار والتبيان

(١) يلاحظ أن هذا الشطر من بحر البسيط، وباقي القصيدة من بحر الكامل.

أو رمت معرفة الرسول حقيقة ... وجلاله المبعوث بالفرقان
أو رمت فقه الدين مرتبطا به ... أصل الدليل أدلة الإتقان
أو رمت معرفة القصائد كلها ... للمبطلين وردها ببيان
أو رمت معرفة الفنون جميعها ... من نحوها والطب للأبدان
تلق الجميع مقررا وموضحا ... قد بيناها أحسن التبيان
جمعت على حسن العبارة رونقا ... وبهاء معنى جل ذو الإتقان
تدعو القلوب إلى محبة ربها ... والذكر للرحمن كل أوان
يدري بهذا من له نوع اعتنا ... في كتبهم مع صحة العرفان
فاحمد إله الخلق إن كنت امرأ ... تشتاقها وتحبها بجنان
واحمد إله الخلق أيضا ثانيا ... في نشرها في هذه الأزمان
حتى غدت بين العباد كثيرة ... مشهورة في سائر البلدان
فعسى الذي بعث القروم لنشرها ... أن يبعث العزمات بعد توان
حتى تكون إلى العلوم سريعة ... مشتاقة للعلم والعرفان
ويزيل عن هذي القلوب موانعا ... عاقت وصول العلم والإيقان
ويلم هذا الدين بعد تشعث ... قد كاد أن ينهدَّ للأركان
ويفتح الأبواب بعد مضيها ... دهرا على التغليق والأدران
ويؤلف الرحمن بعد تفرق ... أرواح أهل العلم والإيمان
بجلاله وجماله متوسلا ... يا دائم المعروف والإحسان
وعلى الرسول مصليا ومسلما ... والصحب والأتباع بالإحسان



في رثاء بعض الأصحاب

وقد توفي ثلاثة من أخصاء أصحابه وهم مشتغلون في طلب العلم ودائبون عليه مع الديانة والصيانة وحسن الأخلاق، وقال في مرثيتهم وقد وقف على مرثية الموفق لعز الدين وشرف الدين ومحب الدين المقدسيين مع سلب أبياتها وتغيير الروي وزيادة بعض الأبيات، وأول نظم موفق بن قدامة:

مات المحب ومات العز والشرف ... أئمة سادة ما منهمُ خلف

إلى آخره.

فقال الشيخ عبد الرحمن السعدي يرثي أصحابه: [من البسيط]

مات المحب ومات الخل يتبعه ... ومات ثالثهم والوقت مقترب
ماتوا جميعا وما ماتت فضائلهم ... بل كان فضلهمُ للناس يكتسب
كانوا نجوم دياج يستضاء بهم ... لهفي على فقدهم من بعد ما ذهبوا
كانوا جميعا ذوي فضل ومنقبة ... كل إلى عالي الأخلاق ينتدب
كانوا جميعا ذوي حلم ومكرمة ... وفعل خير وإحسان كما يجب
وقد تربوا على الخيرات مذ نشئوا ... وعن فعال الردى والزور قد رهبوا
ما ودعوني غداة البين إذ رحلوا ... بل أودعوا قلبي الأحزان وانقلبوا
شيعتهم ودموع العين ساكبة ... لفقدهم وفؤادي حشوه لهب
أكفكف الدمع من عيني فيغلبني ... وأحبس الصبر في قلبي فلا يجب
وقلت ردوا سلامي أو قفوا وَهَنًا ... رفقا بقلبي فما ردوا ولا اقتربوا

ولم يعوجوا على صب بهم دنف ... يخشى عليه لما قد مسه العطب
أحباب قلبي ما هذا بعادتكم ... ترك السلام مع الهجران والغضب
ما كان عادتكم يوما سوى أدب ... يبدي ودادًا صفا من غشه الذهب
لله ما أورث البين المشت لنا ... من صدعة في سواد القلب تنشعب
كانوا أحبة قلبي إن همُ رحلوا ... وإن أقاموا إذا تنتابنا نوب
لما رأيت فؤادي غير ساليهم ... ولم يزل لصنوف الحزن ينجذب
فقلت للقلب يا قلبي على مهل ... ألا اصطبارا عن الأحباب تكتسب
اصبر على فرقة الأحباب محتسبا ... فضل الثواب فعند الله يحتسب
واسأل إلهك خلفا عاجلا بهم ... هو المجيب لمن يدعو ويرتقب

وقد كان بعض أصحابه معه فتور عن الاجتهاد في طلب العلم فكتب إليه بهذه الأبيات:

[من الوافر]

سلام الله يتبعه سلام ... على من في الضمير له مقام
على الحب المكرم من ترقى ... إلى أعلى مكارم لا ترام
وفاق الطالبين ذكًا وحرصًا ... وآدابًا ومعرفة تُسام
وفارق للقواطع باشتياق ... ومن طلب المكارم لا يلام
وخلًا كل مشتغل ينادي ... ألا ليتي بمنزله أقاموا
فبعد الدأب ترضى أن تساوي ... لأرباب البطالة أو تنام
وبعد صعودك الدرج العوالي ... تجاذب للنزول فذا سقام
فما ألهاك عن علم تسامى ... إلى تحصيله الغر الكرام
أألهاك اشتغالك بالدنايا ... وعز عليك يا هذا العظام

أَمَ الْهاك اقتداؤك بالكسالى　　فضاع الوقت وانفرط النظام



لصاحب في بلدة نائية

وقال أيضًا في جواب لصاحب له قد كتب إليه وهو في بلدة نائية فقال: [من الوافر]

وقفت على كتابك يا حبيبي ... فأذكى الشوق من حسن الخطاب

تريد حبيبنا منا جوابًا ... ودمع العين أحرى بالجواب

متى ذكرت ضمائرنا زمانًا ... مسر باجتماع بالجناب

سكتنا بهتة ورضا وصبرًا ... كفعل الصابرين على المصاب

لعل الله يلطف ثم يدني ... فلطف الله يأتي باقتراب

فكم لله من لطف خفي ... يصيب العبد من غير احتساب



في السيارة

وقال رحمه الله أيضًا أول ما ركب السيارة مسافرًا للحج: [من الكامل]

يا راحلين إلى الحمى برواحل   تطوي الفلا والبيد طيَّ المسرع
ليست تبول ولا تروث وما لها   رُوحٌ تحن إلى الربيع الممرع
ما استولدت من نوقنا بل صنعها   من بعض تعليم اللطيف المبدع
كم أوصلت دار الحبيب وكم سرت   بحمولها نحو الديار الشُّسَّع



في الوداع

وكتب إليه بعض الأصحاب حين خرج للحج عام ١٣٣١ يعتذر عن الوداع وأنه لا يقدر على تحمل ألمه وتجرع غصصه، فكتب إليه هذه الأبيات وأرسلها مع المشيعين: [من الطويل].

إلى الله أشكو ما ألم فأوجعا ... من البين والتفريق بين أحبتي
لقد أسف القلب المعنى لبعدكم ... وكاد من الوجد العظيم يفتت
وقد كان وقتي عامرًا بلقائكم ... بكم ينجلي همي وتحصلْ مسرتي
فنرجو الذي قد قدر البعد بيننا ... يعيض ثوابًا للنوى والمصيبة
فلولا حبيب يستحق جميعنا ... حوته القلوب من صفا ومودة
لما رحلت يومًا من الدار رحلنا ... وخل الديار بالأحبة نزهتي
ولكنه كيف التخلف بعدما ... توالت دواعي الشوق نحو الخليقة
فلبى لها قوم أصاخت قلوبهم ... فحنت إلى ذاك الحمى فاستمرت
فخلت جميع الإلف مع حبها له ... تسير بهم عيس السرا مستقلة
ولما دنا منهم وصول ربوعه ... تبين ما في القلب من عظم صبوة
تأدبت الأقوام عند ازدلافهم ... إلى بابه نعم المرجا لشدة
يريدون من رب كريم تفضلا ... وعفوًا وتقريبًا لأعظم حضرة
ونحن وإن كنا بغير صفاتهم ... فقد يسعد المصحوب عنهم بصحبة
عسى وعسى من فضل ربي يعمنا ... بمغفرة من فضله وسعادة



في إجابته على بعض الأصحاب

وورد عليه كتاب من بعض أصحابه فيه نظم أبيات يرثي بها بعض المحبين الذي هو وإياهم في محبتهم مشتركون، فأجابه بهذه الأبيات: [من الكامل]

صدع الفؤاد وهاج للأحزان ... خط أتى من شاسع البلدان
من بلدة بالهند يبكي إلفه ... وينوح نوح الفاقد الثكلان
ويعدد الأوصاف في كلماته ... ندب الحمام على غصون البان
يبكي لمن ملكوا الفؤاد وفارقوا ... بالروح والأشباح والسلوان
يبكي لمن ملك الضمير بحبهم ... والصبر عز لفقدهم للعاني
يبكي لمن لو كان يمكن عدلهم ... لفديتهم بالروح والولدان
يبكي لمن كانوا لعين قرة ... ومسرة للواله الحيران
أرجو من الرحمن أن قد خصهم ... بوفاتهم بالروح والريحان
أرجو من الرحمن أن قد عمهم ... من فضله بالجود والإحسان
أرجو من الرحمن يجمعنا بهم ... في جنة الفردوس والرضوان
أرجو من الرحمن يعظم أجرهم ... ويزيدهم من واسع الغفران
أرجو من الرحمن يجعل قبرهم ... ذا بهجة ومسرة وأمان
هيجتنا يا خلنا وحبيبنا ... وبعثت منا كامن الأحزان
وفجعتنا برسالة تذكي الحشا ... وتشب فيها موقد النيران

لولا الرجا لجزائه لرأيتنا قد هدمت منا قوى الأركان
لكننا نرجو جزيل عطائه فيهون عنا متلف الأحزان
أوما علمت بأنه وعد الذين صبروا لوجه الله بالرضوان
أوما علمت بأنه سبحانه أعطاهمُ أجرًا بلا حسبان
أوما علمت بأنه أولاهمُ غرف الجنان ومنزل الرضوان
وحباهمُ من فضله صلواته مع رحمة وهداية المنان
وتسلم الأملاك في دار الرضا حقًّا عليه بصبرهم بتهان
والصبر خير للعباد إذا نووا وجه الإله ومنة المنان
والصبر في حكم الإله وأمره فرض علينا لازم الإنسان
والعبد إن عرف الإله وأنه مولًى حكيم دائم الإحسان
صبر النفوس على البلاء لعلمه بفضيلة الصبر الجميل الشان
يا دائم الإحسان يا مولي الثنا يا صاحب المعروف كل أوان
يا خالقي يا رازقي ومدبِّري ومصرّفي في سائر الأحيان
يا سيدي وذخيرتي في شدتي يا مبدعي من أضعف الأركان
أنت الذي أعطيتني ومنحتني وبلوتني بلوى القريب الداني
فاربط على قلبي وثبت خاطري وارزقني التسليم مع رضوان
واجعل ثوابي يا إلهي مضعفًا متجددًا بتجدد الأزمان
واقذف بقلبي من ودادك ما به أسلو عن الأهلين والولدان
واجعل لساني دائمًا مترطبًا بالذكر في الإسرار والإعلان
واجعل صلاتك والسلام على الذي قد جاء بالقرآن والتبيان

ما ناحت الأحباب عند فراقهم   أحبابهم أو ما استقال الجاني

وقال أيضًا: [من الكامل]

بين العقيق وبين سلع موضع   للقلب فيه والنواظر مرتع
يا منزلًا فيه لأرباب الهوى   مرأى يروق من الجمال ومسمع
ويعرض الحادي بجرعاء الحمى   والجزع من وادي الأراك فأجزع
شوقًا لبانات العقيق وإنما   وجه اشتياقي بالحجاز مبرقع
أسفًا لجسم بالقصيم مخلف   وفؤاده مغرى بطيبة مولع
ولكيف لا تحنو الأضالع نحوها   شوقًا وتذرف في هواها الأدمع
وبها رسول الله خير منبأ   تحدو الركاب إلى حماه وتوضع
أزكى البرية عنصرًا وأعزهم   بيتًا وأولى بالفخار وأجمع
وأمدهم بالجود ثم أتمهم   حلمًا وأصدق في المقال وأبرع
وأشدهم بأسًا إذا التقت الوغى   والسمهرية بالأسنة تشرع
جمعت له كل المناقب مفخرًا   وله المقامات التي تترفع





يقول الشيخ السعدي[1]: [من الكامل]

أذكــرت ربـعًــا مــن خليطك ... أقفرا وأسلت ربعًا ذا رذاذٍ قطّرا
أم هاجك الغادون عنك صبيحة ... [عشية] لما مشوا وتيمموا أم القرى
لـزموا الـمواتـر واغـتـدوا في ... سيرهم لله دمعي خلفهم يا ما جرى
فكان ظهر البيد بطن صحيفة ... ومسيرها فيه يحاكي الأسطرى
رحلوا وما عاجوا علي فليتني ... واها لحظي كيف كنت مؤخرا
إن كان جسمي في الديار مخلفًا ... فالقلب معهم حيث ساروا تهجرا
يا أيها الغادون كيف ظعنتمو ... وتركتمو مضنى الفؤاد مكدرا
ما كان أقسى قلبكم لم ترحموا ... صبًّـا تـعـذر صبـره فتحسرا
كيف السلوّ عن الأحبة بعدما ... جد الرحيل وجد عزمك ما ترى
يا سائرين إلى الحبيب سلمتمو ... وغنمتو وأصبتمو حسن القرى

(١) يقول الشيخ محمد البسام: عندما عزمت على الحج سنة ألف و ثلاثمائة وثلاث وستين، وحينما أردنا السفر جئت إلى شيخنا عبد الرحمن الناصر السعدي لأودعه فناولني ظرفًا مختومًا، وقد كتب اسمي عليه وقال: لا تقرأه إلا بعد مسيركم، فلما فتحته وجدت فيه هذه الأبيات من قوله؛ فتأثرت منها وودت أني لم أسافر إلا ونحن جميعًا، ونأمل أن يحقق الله ذلك. لما لمسته من محبته وشفقته أمتعنا الله بحياته ونفعنا بعلومه وجزاه عنا أفضل الجزاء.
كتبه الفقير إلى مولاه محمد بن سليمان البسام.

عــودوا علي بـدعـوة مقبولة ... علّ الكريم يغيث قلبًا مقفرا
يممتمو مـولـى كـريـمًـا لم ... يـزل إحسانه متواليا متكررا
بشراكمو وهنيئكم بمشاعر ... أنـوارهـا وبـهـاؤهـا لـن ينكرا
ومواقف النفحات والبركات والـ ... خير الجزيل فما أجلّ وأغزرا
كم توبة مقبولة وعطية موفورة ... الأقــســام مــن رب الــورى
وكم اغتدى عبد مسيئ مسرف ... بحلى الكرامة تائبًا مستغفرا
وكم استقال المذنبون عثارهم ... فأقال عبدًا بالذنوب تعثّرا
وكـم اسـتـمـاح الـطـامـعـون ... لفضله فأنالهم خيرًا جزيلًا مكثرا
وكـم اسـتـجـاروا مـن ألـيـم ... عقابه ليقيهم كسر العظم ويغفرا
لم تنظر الأبصار أعظم رحمة ... حلت على وفد الكريم وأكثرا
من أجلها الشيطان يندب معولا ... خزيان من محو الخطا متحسرا
كفّاكمو المولى الكريم بما ... حبا وأعادكم لرحابه الغرّ الذّرى



وله - رحمه الله - في رحيل بعض الأحبة وفراقهم[1]:

قف بالربوع من الأحباب مذ بكروا ... على الرحيل فلا عين ولا أثر
وانظر ديارهمو وحشا منازلها ... قفرا مراتعها تقري بها العبر
واستجل يا صاحبي ربعا أنست به ... دهرا طويلا فما ينتابه الكدر
معْ كل آنسة حسناء قد كملت ... من الخلائق والأخلاق والغرر
بيضاء في لونها نور يحف به ... حسن الملاحة والتصوير والحور
من كل كاعبة النهدين راق بها ... غض الشباب الروي والمنظر النضر
عرب شمائلها كل الدلال بها ... يسلو الحزين بها والوصل منتظر
برق مباسمها شهد مراشفها ... يقول واصفها قد مسني الحصر
فتلك يا صاحبي قلبي وناظرتي ... لمنتهى حسنها يزهو بها البصر
لم أنس ما أنسى يوم رحتلهم ... عن الديار وماء العين ينهمر
وقد أشارت غداة البين في يدها ... إلى الوداع وقلب الصب مستعر
فقد تناءت بعيدا واستلج بها ... داعي الفراق فما يبقى ولا يذر
بالله يا ساريا تطوي مطيته ... بيد الفلا تعتلي طورا وتنحدر
لا خاب سعيك عرج يمنة كثبا ... حيث المنازل للريان تنتظر
أقري السلام وحي النازلين بها ... فما عليك إذا بلغتهمْ ضررٌ
حيث الفؤاد لديهم موثق دنف ... يرجو اللقاء وعود العجر تشتجر
قد اعتراني الونى معْ ما وصفت لهم ... من مزعجات الهوى والهم منتشر
لكنها همتي تنمو وتزعجني ... إلى حبيب إليه الشوق والوطر

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون ٣/ ٢٣٣.

إلى حبيب لبيب فاضل فطن حلو الشمائل لا نكس ولا نزر
تلهيك منه خصال لست تسأمها تنمي إلى فضله أصلا وتفتخر
حـلـم وعـلـم وآداب مفصلة قد زانها العقل والتبيان والفكر
يبدي من السحر تبيانًا ومعجزةً على العويص من الأوصافِ مقتدر
وإن تشأْ رقة الألفاظ فاصغِ إلى عذاب سلسلة تستشفها الدرر
لـلـه درك مـن خـل يـسـر به من كاده الفضل والإحسان يبتدر
أبديت يا صاحبي فضلا وجدت لنا من حسن ذاتك ما لم يدرك الفكر
فـلا عـنـاك مـن الأيـام سيئها ولا عراك الشقا والهم والكدر
ولا تـزال بـعـون الـلـه مرتقيا إلى المكارم للعلياء تبتكر
عسى حميا قرير العين مرتقبا فضل الكريم ففضل الله ينتظر



آخر المجلد السادس والعشرين

وهو نهاية مجموع مؤلفات الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي